خلافة الإنسان

في الأرض في ضوء القرآن الكريم

أ.حسين شرفه
أستاذ فقه السيرة والتاريخ الإسلامي
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة باتنة - الجزائر

حظي الإنسان في القرآن الكريم بما لم يحظ به أي مخلوق آخر، وليس مرجع ذلك إلى أن هذا القرآن خطاب تكليفي للإنسان، فهذا أمر بدهي، ولكن في احتفاله به والتنويه بقدره ومكانته بين سائر المخلوقات. وتبدو عناية القرآن الكريم بالإنسان في أنه المخلوق الوحيد الذي فصل قصة خلقه، وبدا ذلك واضحا منذ بداية الوحي، فقد افتتحت سورة العلق بقوله تعالى :{ إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق} - العلق : 1-2- .

كما تتأكد عناية الله بهذا المخلوق حين أعلن عن ميلاده في الملأ الأعلى في احتفال مشهود، ثم كان تمام التكريم والتفضيل أن نفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة.

والحقيقة أن كل تلك الحفاوة وذلك التكريم إنما كانا بسبب المهمة التي سيتولاها هذا المخلوق، وهي " خلافة الله في الأرض"، وهي تكليف ضخم وشاق وأمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وتحمل هو أعباءها وتولى تبعاتها . وقد انتدب الله عز وجل الإنسان لتلك المهمة الشريفة والشاقة في نفس الوقت، وزوده بكل متطلباتها سواء على مستوى ذاته في تكوينه أو في تعامله مع المحيط من حوله، هذا التعامل الذي تحكمه سنن ونواميس موحدة تسير الكون والإنسان.

ولقد أتاح الله عز وجل للإنسان أن يتحرك في هذا الكون الفسيح بما وهبه من ملكات وأجهزة وعي، وبما أودع فيه من طاقات كامنة، لتحقيق سيادته على هذا الكون الذي سخر له وجعل في خدمته، ويمده

بالموازاة مع ذلك بأسباب الهداية حتى لا يزيغ أو يضل في دروب ومنحنيات هذا الكون، فيظل بذلك محافظا على ميثاق الاستخلاف مراعيا لشروطه.

والإنسان بعد ذلك يملك الحرية التامة والإرادة الكاملة في أن يكون خليفة لله في الأرض أو يسعى فيها ويسفك الدماء.

هذه أهم النقاط التي تطرحها هذه الدراسة مستهدية في ذلك بالقرآن الكريم.

حقيقة الإنسان وطبيعة تكوينه في القرآن الكريم :

قبل الشروع في الحديث عن الإنسان خليفة يجدر بنا بداية أن نتعرف عن حقيقته كما يحددها القرآن الكريم، لأن ذلك من شأنه أن يضع أيدينا على سر تبوئه لتلك المكانة الراقية بين المخلوقات، كما ستتضح لنا الخصائص التي امتاز بها هذا الكائن فأهلته لنيل شرف الاستخلاف في الأرض.

1- حقيقة الإنسان :

وقد وردت آراء مختلفة في بيان حقيقة الإنسان واختلف العلماء في تحديد أصل التسمية " فقيل سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه وقيل سمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي(1). فتسمية هذا المخلوق المتميز بـ " الإنسان " تحمل أكثر من دلالة، لأن باستقرائنا للفظ الإنسان في القرآن الكريم والذي ورد في خمسة وستين موضعا (2) نجد أنه يتميز عن مرادفاته : كالإنس والبشر والناس، فالإنس من الأنس وهو خلاف النفور، ويقال إنسي لمن كثر أنسه ولكل ما يؤنس به" (3) ، ولا يذكر هذا اللفظ في القرآن إلا مقترنا بالجن الذي يدل على الخفاء والذي هو قرين التوحش، ومن هنا فهو لا يحدد حقيقة الإنسان. كما أن الإنسان ليس مجرد " بشر" اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر (4) ، وقد خص ذكر البشر في القرآن باعتبار جثة الإنسان وظاهره مما" يؤذن بأن

البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق وفيها يلتقي بنو آدم جميعا على وجه المماثلة" (5).

والإنسان في القرآن غير الناس، لأن لفظ الناس والذي يتكرر كثيرا في القرآن يراد من اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية وإن كان بعضهم يذهب إلى القول بأن "من عادات القرآن أنه إذا كان المقام مقام التعبير عن الفرد يذكر الإنسان نحو : { وكل إنسان ألزمناه}، وإذا كان مقام التعبير عن الجمع يذكر الناس نحو : { إن الله لذو فضل على النلس }، ولذلك لا يذكر الإنسان إلا والضمير الراجع إليه مفرد، ولا يذكر النلس إلا والضمير الراجع إليه ضمير جمع " (6).

ومن هنا فالإنسان في القرآن الكريم يذكر اعتبارا لإنسانيته لا لمجرد كونه أنيسا مستأنسا يألف الناس ويألفوه، كما لا يراد من ذكره التنويه بمظهره وجثته باعتباره بشرا، ولذلك قال أبو البقاء :" واعلم أن الإنسان هو المعنى القائم بهذا البدن ولا مدخل للبدن في مسماه، وليس المشار إليه بـ " أنا " الهيكل المحسوس، بل الإنسانية التي هي صورتها النوعية الحالة في مادتها المحصلة لنوع البدن الانساني، التي هي كالآلة للنفس الناطقة في التصرف في البدن في أجزائه " (7).فقد اعتبر أبو البقاء الإنسان هو المعنى القائم للبدن وليس البدن نفسه، وأن الإنسانية هي الصورة النوعية وليس الهيكل المحسوس.

فالإنسانية التي هي منه الإنسان وحقيقته " لطيفة ربانية روحانية سلطانية خلقت في عالم اللاهوت في أحسن تقويم ثم ردت إلى عالم الأبدان الذي هو أسفل في نظام سلسلة الوجود، وتلك اللطيفة هي المكلف والمطيع والعاصي والمثاب والمعاقب " (8).

وقد عبر الجرجاني عن هذه الحقيقة أحسن تعبير حين قال في تعريف الإنسان :" الإنسان الكامل هو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية؛ فمن حيث روحه وعقله كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب؛ ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات، فهو الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية " (9).

لقد سما هذا المخلوق المسمى " الإنسان " وارتقى إلى مستوى احتمال تبعات التكليف وتحمل الأمانة، بما خصه خالقه سبحانه وتعالى من مواهب وملكات أهلته أن يكون خليفته في الأرض.

ولذلك يحرص الأستاذ العقاد على تسمية الإنسان " بالكائن المكلف "، مرجحا ذلك على تسميات أخرى" كالكائن الناطق" أو " الملك الهابط" أو " الحيوان الصاعد "، وقد علل ذلك بقوله :" ليس الكائن الناطق بشيء إن لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف وليس الملك الهابط منزلة تهدي إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بينما كان عليه وما صار إليه، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتقاء. إنما الكائن المكلف شيء الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة، وحادث من حوادث الفتح في الخليقة موضوع في موضعه المكين بالقياس إلى كل ما عداه " (10).

هذا باختصار شديد مفهوم حقيقة الإنسان كما بينها القرآن الكريم وستزداد وضوحا وجلاء بتناولنا لطبيعة تكوين الإنسان.

2- طبيعة تكوين الإنسان :

من الخصائص التي امتاز بها الإنسان عن سائر المخلوقات أنه ذو طبيعة متفردة، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون هذا المخلوق - دون غيره- ذا تركيبة مزدوجة وذلك تبعا للعناصر المكونة لذاته، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه التركيبة المزدوجة في أكثر من موضع كما في قوله تعالى :{ إني خالق بشرا من حما مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين } - الحجر : 28-29 - وفي نفس المعنى جاء قوله عز وجل :{ إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين } - ص: 70-71-.

فالآيات الكريمة تشير إلى عنصرين في تكوين الذات الإنسانية أحدهما مادي وهو التراب، والثاني معنوي وهو الروح، فمن الحما المسنون أو الطين كان الجسد ومن النفخة كانت الروح، والجسد والروح بعد ذلك هما " ملاك الذات الانسانية، تتم بهما الحياة ولا ينكر أحدهما في سبيل الآخر " (11) إذ " القاعدة في الاستخلاف هي تنمية الكيان المزدوج بالعدل بين عنصريه، فترقى الروح بإشباعها من عالم الخير المعنوي : فضيلة ورحمة وعلما وتقوى... ويرقى الجسم بإشباعه من مطالب المادة، ولكن في غير إسراف (12). وما جعل الإنسان ذا طبيعة مزدوجة اعتباطا ولكن روعي فيه القيام بدوره في خلافة الأرض، فهو بروحه يظل موصولا بخالقه سبحانه وتعالى يعبده ويتبع هداه، وبجسده يظل موصولا بالأرض يساهم في إعمارها وفق هدي الله تعالى، وهو في

كلا الأمرين يقوم بالعبادة التي ما خلق إلا من أجلها، مصداقا لقوله تعالى:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} " الذاريات : 56"

الإنسان خليفة في الأرض بالجبلة والفطرة :

لم يكن هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض عقابا له على خطيئته كما تصوره الكتب المحرفة، لأن القرآن الكريم يؤكد أن آدم عليه السلام بعد أن أكل من الشجرة استغفر ربه تعالى فتاب عليه، { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم } " البقرة : 36". فالقرآن يعلن منذ الوهلة الأولى أن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام ليكون خليفة في الأرض في قوله عز من قائل :{ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة }" البقرة :30 " فقد اقتضت إرادة الله ومشيئته منذ البداية أن تسلم لهذا المخلوق الجديد زمام الأمر ليتولى خلافتها وعمارتها ، وأخبر بذلك ملائكته إعلانا عن ميلاد هذا الخليفة وبين الحكمة من خلقه والمهمة المنوطة به، وهذا يعني أن الإنسان قد خلق مزودا بمؤهلات ومواهب فطرية تمكنه من القيام بمهمة الخلافة، ونستطيع تبين ذلك من خلال جملة من المعطيات أهمها :

1-طبيعة تكوين الإنسان خاصة في عنصرها المادي، فقد خلق الإنسان من تراب الأرض كما جاء في الحديث الشريف :" إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض" (13).

ولاشك أن لخلق الإنسان من تراب مقصد جلي وهو إيجاد الانسجام والتكافؤ حتى على مستوى التكوين فيكون الإنسان جزء من الأرض ليستطيع التكيف معها.

2- ومما يدعونا إلى تقرير جبلية الاستخلاف على الأرض أن السياق القرآني قبل استعراض قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة مهد بالحديث عن الأرض بقوله :{هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا }"البقرة 29 "وبعد هذه الآيات مباشرة بدأت قصة استخلاف آدم في الأرض، وهذا التمهيد له معناه فقد تكلم عن خلق ما في الأرض للإنسان قبل الحديث عن الإنسان نفسه، وهذا يعني أن الله عز وجل ما خلق هذه الأرض وما فيها إلا لهذا الإنسان ، وأن هذا الأخير ليس له من مستقر ولا سكن إلا في الأرض.

3- كلمة " الجعل" في قوله تعالى : إني جاعل في الأرض خليفة تفيد أن هذا الكائن ليس مخيرا في أن يكون خليفة أو لا يكون . بل هو خليفة بمقتضى " الجعل" الإلهي، أي أنه خليفة بمقتضى الخلق والجبلة والفطرة (14).

4- وأمر أخير تتأكد به جبلية استخلاف الإنسان في الأرض وهو طبيعة الأرض التي مهدت وهيئت لاستقبال الوافد الجديد، " فالأرض قد سخرت له تسخيرا ، والله قد حدد أبعادها وقوانينها ونظمها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا إيجابيا فاعلا " (15).

والقرآن الكريم يعبر عن هذه التهيئة بألفاظ مختلفة منها :

-التسخير : الذي تكرر ستة عشرة مرة (16) وهو يعني الخدمة المجانية، فكل ما في السماوات والأرض في خدمة الإنسان إذا أمتلك مفاتيحها وأحسن التعامل معها.

- التذليل : كما في قوله تعالى : {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها } " الملك : 15" ، فكلمة "ذلولا " وهي صيغة مبالغة بمعنى مذللة " صورت الأرض وكأنها مائدة وضعت بين أيدي الإنسان بكل ما في باطنها، وبكل ما على ظهرها من خير؛ ليعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية، وليستخرج منها ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع " (17).

- التمكين : كما في قوله تعالى : {ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون } " الأعراف : 10" ، ولفظ " التمكين " يوحي أن الله عز وجل أودع الأرض خصائص وموافقات كثيرة تسمح بحياة الإنسان عليها ثم أمكنه من التحكم في مكوناتها. فهذه العلاقة الحميمة بين الأرض والإنسان التي عبر عليها القرآن بتلك الكلمات الثلاث دليل على تهيئة الله عز وجل للأرض وتمهيدها للإنسان لتكون له مستقرا ومتاعا إلى حين.

تلك بعض القرائن الدالة على فطرية وجبلية استخلاف الإنسان للأرض والسؤال الذي يمكن أن يثار، إذا كان قد تعين أن الإنسان خلق ليكون خليفة في الأرض، فلماذا خلق آدم عليه السلام في الملأ الأعلى، ثم أسكن الجنة وأكل من الشجرة ثم أخرج منها ليهبط في نهاية المطاف إلى الأرض ؟

الحقيقة أن ذلك كله كان بمثابة التجربة العملية لمتطلبات الاستخلاف، فقد أريد لآدم عليه السلام وذريته أن يتزودوا لتلك المهمة ويتدربوا " على تلقي الغواية وتذوق العاقبة وتجرع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين. إن قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية والصحوة من بعد السكرة والندم وطلب المغفرة...إنها هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة. فقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا، استعداد للمعركة الدائبة " (18).

وهكذا تعلم آدم عليه السلام ومعه ذريته مبادىء أساسية في الخلافة وأعطيت له الخطوط العريضة الواجب اتباعها، فقد عرق مكانته عند الله إذ تولى خلقه بنفسه وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة اعترافا وتقديرا له، وإقرارا له بأحقيته في الخلافة، وامتنع إبليس عن السجود استكبارا فكان ذلك دلالة على توجيه كل طاقاته وإمكاناته لمنع الإنسان من تحقيق الخلافة.

حقيقة استخلاف الإنسان في الأرض :

خصصنا الصفحات السابقة لبيان حقيقة الإنسان وطبيعة تكوينه ثم أشرنا إلى بعض المؤهلات والمواهب الفطرية التي بوأت الإنسان شرف خلافة الأرض، وقد كان الغرض من طرح تلك القضايا الوصول إلى حقيقة مؤداها أن الإنسان ما خلق إلا ليكون خليفة في الأرض، وإذ تأكد لدينا هذا الأمر فإننا سنتطرق الآن إلى بيان حقيقة الاستخلاف. ولسنا بحاجة إلى تتبع المعنى اللغوي للخلافة، لأن ما تقدمه القواميس اللغوية (19) في مادة "خلف " مجرد صيغ واشتقاقات ومعاني عامة لا نستطيع أن نتبين من خلالها معنى خليفة أو خلافة كما جاءت في القرآن الكريم.

وهذا الذي فات أصحاب المعاجم اللغوية تداركه الذين تعاملوا مع ألفاظ القرآن الكريم كالراغب الأصفهاني والفيروز آبادي، فقد جاء في كتاب " معجم مفردات القرآن " ما يلي :" خلف فلان فلانا قام بالأمر عنه إما معه وإما بعده ... والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف " (20). فقد أشار الراغب الأصفهاني إلى معاني كثيرة تبين دلالة الخلافة، خاصة المعنى

الأخير وهو قوله :" وإما لتشريف المستخلف "، وهو المعنى الذي قصده القرآن حين تكلم عن خلافة الإنسان في الأرض.

ولسنا أيضا بحاجة إلى الدخول في تفاصيل أوردها المفسرون في المراد بالخليفة والمستخلف له ، فقد اختلفوا في المقصود بالخليفة هل هو آدم عليه السلام وحده، أم آدم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أم آدم عليه السلام وذريته، وهذا الرأي الأخير هو الراجح إذ المراد بالخليفة هو النوع الإنساني أو هو آدم وذريته، وكما قال الزمخشري :" أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما يُستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم " (21). ولو كانت الخلافة لآدم أو للأنبياء فحسب ما كان وجه لقول الملائكة :{ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء } " البقرة: 30" إذ لا يتصور وقوع الإفساد في الأرض وسفك الدماء إلا من ذرية آدم، لان الأنبياء معصومون. كما اختلفوا في المستخلف له فقالوا الملائكة وقالوا الجن، وهي آراء لا تستند إلى دليل إنما هي مجرد تأويلات، وصحيح أن الآية في سورة البقرة لم تذكر المستخلف له، فلم يقل الله عز وجل :" خليفة لي " أو " خليفتي"، ولكن المتبادر إلى الذهن أنه خليفة لله تعالى، فالأرض ملك لله وهو من استخلف الإنسان فيها، ثم إن الله تعالى أعلن عن الخلافة في الملأ الأعلى قبل ظهورها للحفاوة بالخليفة، والإشارة إلى أنه ذو شأن عظيم، كما تدل عليه التاء في " خليفة" التي جاءت للمبالغة في الدلالة على عظم حاله وأوصافه وأنه الغاية في ذلك كعلامة (22) فلا قيمة لهذه الحفاوة وهذا التشريف إلا أن يكون هذا المخلوق خليفة لله تعالى.

الخلافة عبودية وسيادة :

حقيقة الخلافة أنها " عبادة طوعية لله تعالى بالتزام هديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله وعلاقته بالكون والمخلوقات بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح"(23). أو هي علاقة بين الإنسان المستخلف وبين الله عز وجل الذي استخلفه من جهة، وعلاقة بين الإنسان الخليفة وبين ما استخلفه الله عليه في الأرض (24).

فالخلافة قائمة في شقها الأول على العبودية لله تعالى باعتباره المستخلف، وفي شقها الثاني على السيادة لأن الإنسان مستخلف في

الأرض، وتلك حقيقة الخلافة، فهي قائمة على هذه الثنائية التكاملية " العبودية والسيادة".

1- الخلافة عبودية :

فالخلافة عبودية لأن الله عز وجل هو الذي انتدب الإنسان لها، وجعلها الغاية من وجوده كما في قوله عز من قائل : { إني جاعل في الأرض خليفة } " البقرة : 30".

فالآية تحدد الهدف من إخراج الإنسان إلى الوجود وهو " الخلافة "، وهناك آية ثانية تحدد غاية أخرى هي " العبادة " في قوله تعالى :{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } " الذاريات : 56"، وتبدو هذه الآية أكثر دقة بأسلوبها الحصري والقصري فهاتان غايتان لخلق الإنسان " الخلافة والعبادة " وقد تبدوان متباعدتين وليس بينهما رابط، ولكن الحقيقة غير ذلك فهما" تفسير لغاية الوجود الإنساني من جوانب مختلفة، كل جانب يفسر الآخر ويحدد صورته.

فالخلافة في الأرض... تتضمن معنى التمكين والسيطرة عليها والهيمنة على ما فيها ... كما تتضمن كذلك عمارتها...

فالإنسان قد خلق إذن ليكون سيد هذه الأرض والحاكم فيها بإذن الله ومشيئته.

والإنسان قد خلق في الوقت ذاته ليعبد الله ... ومقتضى ذلك أن تكون الخلافة في الأرض .. هي العبادة أو جزءا من العبادة التي خلق الإنسان من أجلها " (25).

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى هذه القضية في كتابه " الذريعة إلى مكارم الشريعة " تحت عنوان :" ما لأجله أوجد الإنسان " فقال : "والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء :

1- عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى :{واستعمركم فيها }، وذلك تحصيل ما به تزجيته المعاش لنفسه ولغيره.

2- وعبادته المذكورة في قوله تعالى :{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } ، وذلك هو الامتثال للباري عز وجل في أوامره ونواهيه.

3- وخلافته المذكورة في قوله تعالى :" ويستخلفنكم في الأرض فينظر كيف تعملون " وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر باستعمال مكارم الشريعة " (26). فقد ذكر الراغب ثلاث غايات للوجود الإنساني، ولكنه نظر إليها كما لو كانت

متفرقة ، والحقيقة أنها متكاملة وتمثل ثلاث مستويات من العبادة بمفهومها الشامل، لأن كلا من الخلافة والعمارة إذا لم تخرجا عن دائرة الهداية الربانية كانتا من صميم العبادة.

وهكذا يتمحض لدينا أن الغاية من الوجود الإنساني في شقها الأول هو "العبودية "، وبقي علينا أن نجلي شقها الثاني وهو "السيادة" لتكتمل لدينا حقيقة الخلافة باعتبارها عبودية وسيادة في آن معا.

2- الخلافة سيادة :

وكون الاستخلاف في الأرض سيادة واضح بالنظر إلى المكانة المرموقة التي تبوأها الإنسان في الأرض مسخر ومذلل له وممكن منه. ومجال سيادة الإنسان في هذا الكون واسع لا يمكن الإحاطة به في مثل هذه الدراسة، لأنه يتضمن التكريم الذي خص به الإنسان في ذاته، وتسخير الكون له.

تكريم الإنسان في ذاته :

وتكريم الإنسان في ذاته يشمل بنيته المادية وبنيته المعنوية.

-أما البنية المادية فتتمثل في خلق الله عز وجل الإنسان في أحسن تقويم وتصويره في أحسن صورة مصداقا لقوله تعالى :{ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم }" التين : 04 " وقوله تعالى :{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك }" الانفطار : 06-08 " وقوله سبحانه :{وصوركم فأحسن صوركم }" غافر : 64 ". ولعل من أبرز مظاهر الحسن في التقويم المادي ... ما خلق عليه الإنسان من وضع في قامته امتد فيه إلى أعلى، وتركزت وسائل الإدراك في طرفها الفوقي، فهو وضع هيأ للإشراف على الظرف المكاني المحيط بالإنسان على أبعاد كبيرة ... فأين هذا التقويم الرفيع من البهيمة التي خلقت مكبة على وجهها " (27).

- أما البنية المعنوية فهي أعجوبة الأعاجيب التي حيرت العلماء والحكماء، فلم يستطيعوا الوصول إلى كنهها، ويكفي فيها العقل الذي هو مناط التكليف في أداء وظيفة الخلافة، وقد اعتبر كثير من المفسرين أن التكريم والتفضيل المذكورين في قوله تعالى :{ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا }" الإسراء : 70"، يقصد منه العقل، فقال الرازي تعليقا على هذه الآية :" إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة

العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي. وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هي " (28).

أما القرطبي فقد ذكر أقوالا عديدة في معنى التفضيل في الآية ليخلص بعد ذلك إلى القول :" والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله " (29).

وليس العقل هو الهبة الوحيدة التي من الله عز وجل بها على الإنسان وكرمه وفضله بها على كثير ممن خلق تفضيلا، وإن كانت أعظمها، ولكن هناك مواهب وملكات أخرى نذكر من بينها نعمة النطق والبيان، والتي بواسطتها يستطيع الإنسان التعبير عن أحاسيسه وأفكاره، والتي امتن الله بها عليه فقال :{ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان }" الرحمن : 01-04". هذا عن التكريم والتفضيل في ذات الإنسان في بنيته المادية والمعنوية، وهناك مجال آخر أرحب تتجلى فيه سيادة الإنسان في أكمل صورها، ونقصد تسخير هذا الكون وجعله خادماله.

2- تسخير الكون للإنسان :

وهذا التسخير يتم على مستويين : مستوى مادي ، ومستوى معرفي .

-أما التسخير المادي : فيراد منه مجموع القوى والطاقات والنعم والخيرات المبثوثة في الأرض والسموات، وهي كثيرة جدا أكثر من أن تحصى أو تعد منها ما هو ظاهر يستطيع الإنسان إدراكه، ومنها ما هو مستتر لا يمكن إدراكه ولكنه يدرك آثاره والقرآن الكريم يشير إلى هذه القوى والنعم بالإجمال مرة وبالتفصيل أخرى، فمن الآيات التي أجملت المظاهر والظواهر الكونية المسخرة للإنسان قوله تعالى : { ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة }" لقمان : 20 ". وقوله عز من قائل :{ وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا منه }" الجاثية : 13".

أما الآيات التي فصلت في بيان النعم والخيرات التي أسبغها الله عز وجل على الإنسان فكثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى :{ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من

الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار }" إبراهيم : 32-34.

فهذه الآيات الكريمة فصلت بعض ما أجملته الآيتان السابقتان، فأشارت إلى جملة من النعم في السموات والأرض منها نعمة إنزال المطر وإخراج الثمرات، ونعمة الفلك التي تجري في البحر ثم الأنهار فالشمس والقمر والليل والنهار.فهذه آيات ثلاث حوت هذا الكم من نعم الله عز وجل التي أنعم بها على الإنسان ، والسياق يؤكد أن ذلك كله مسخر للإنسان ومهيأ له بتكرار فعل " سخر " أربع مرات، والإشارة بلفظ "لكم" خمس مرات .

أما صدر سورة النحل فنقف أمام حشد كبير من قوى الكون ومظاهره، وكلها قد سخرها الله عز وجل لخدمة الإنسان، وتدبير أسباب عيشه وتحقيق شروط رفاهيته واستقراره.

والحق أنه يتعذر علينا نقل النص لطوله إذ يقع في خمسة عشر آية، وسوف نقتصر على مجرد الإشارة إلى ما احتوى من مسخرات وخيرات من الله بها على الإنسان.

فالآيات تبدأ بنعمة الأنعام ومنافعها كثيرة من دفء وأكل وجمال وحمل للأثقال، ثم تنتقل إلى السماء فتتحدث عن نعمة الماء الذي يشرب منه الإنسان ويسقى به مختلف النبات، ثم تشير إلى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، لتعود بعد ذلك إلى الأرض فتبرز نعمة البحر وما فيها من خيرات ثم الجبال والأنهار و السبل، لتختم بنفس ما ختمت به آيات سورة إبراهيم :{ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها } وهي تشي بأن ما ذكر هنا أو هناك ليس سوى جانبا أو جزءا من نعم الله تعالى الكثيرة التي لا تحصى ولا تعد.

هكذا يرسم القرآن الكريم العلاقة بين الإنسان والكون فهي علاقة تسخير، وما على الإنسان إلا أن يستغل تلك النعم بالتفكير والتدبير.

هذا عن تسخير الكون في جانبه المادي. أما عن تسخيره في الجانب المعرفي، فهو ما يبدو من انبناء الكون مادة وحركة على قوانين وسنن ثابتة لا تتغير، فكل ما في الكون من ظواهر وقوى وطاقات كالشمس والقمر والليل والنهار والبحار تحكمه نواميس ثابتة مطردة لا

تحيد عنها قيد أنملة، فإذا أراد الإنسان أن يستغلها فما عليه إلا أن يهتدي إلى سر ذلك الناموس الذي يحكمها والذي تسير وفقه، وبغير الاهتداء إلى ذلك السر لا يستطيع الإنسان بقوته الهزيلة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة (30).ولا سبيل إلى الاهتداء لتلك النواميس إلا بإعمال العقل، ولذلك حرص القرآن الكريم على توجيه الأنظار إلى الآيات الكونية والتدبر فيها، كما في قوله تعالى :{أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء} " الأعراف 185" وقوله عز وجل :{ألم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد} "ق 6-10" وقوله :{قل أنظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} " يونس 101 " وقوله :{أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت } " الغاشية- 17-20" .

فهذه جملة من الآيات الكونية ، السماء وما ينزل منها من ماء الأرض وما فيها من جبال ونبات وأشجار وما يحي عليها من أنعام ، يجعل منها القرآن الكريم مجالا للتأمل والتدبر والنظر للوصول إلى ما يحكمها من نواميس وسنن تسهل على الإنسان أن يسخرها ويجعلها في خدمته .

والحق أن تسخير قوي الكون مبني على معادلة دقيقة تمثل تحديا مناسبا للإنسان ، ليس معجزا ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري للرد ، فلم يمهد الله عز وجل الكون تمهيدا كاملا ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية ، لأن هذا تفيض عملية الاستخلاف ، كما أن الله لم ينشأ أن يجعل الكون على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع الأمر الذي يتنافى أيضا ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة له في الأرض. .

بقي علينا أن نشير إلى أن القول بأن الخلافة عبودية وسيادة لا يعني التباين والتناقض كما قد يفهم ، إنما هما وجهان لحقيقة واحدة ولا يمكن الفصل بينهما كما لا يمكن إقامة إحداهما دون الأخرى . فالإنسان

المستخلف إذا لم يعمل بمقتضى عهد وشروط الاستخلاف وهو العبودية لله سبحانه وتعالى فقد السيادة بالضرورة ، لأنه سيحول عبوديته إلى غير الله وهذا الغير داخل تحت سيادة الإنسان فيتحول من سيد إلى مسود ، فعبادة الإنسان لله وحده استعلاء وسيادة على كل ما في الأرض ، وعبادته غيره رفض للترتيب الكوني الذي أراده الله عز وجل له التفضيل والتكريم اللذين خصه بهما .

الهوامش :

-1- الراغب الأصفهاني – معجم مفردات ألفاظ القرآن تحقيق : نديم مرعشلي ص 24 دار الكاتب العربي لبنان 1396 هـ/1972 م

-2- أنظر : محمد فؤاد عبدالباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص 119 دار المعرفة بيروت لبنان ط2 --3- المرجع السابق الصفحة نفسها

-4- المرجع نفسه ، ص 45

-5- د. عائشة عبد الرحمن – القرآن وقضايا الإنسان ص 15 دار العلم للملايين بيروت ط 3 – 1978 م

-6- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني – الكليات ص 199 مؤسسة الرسالة بيروت ط 2 – 1413 هـ / 1993 -7- المرجع نفسه ص 198.

-8- الشريف الجرجاني – التعريفات تحقيق د.عبد المنعم الحفني ص : 47 دار الرشاد القاهرة د.ت.

-9- المرجع نفسه الصفحة نفسها.

-10- عباس محمود العقاد – الإنسان في القرآن الكريم ص : 18 مكتبة رحاب الجزائر د.ت.

-11- المرجع نفسه ص : 25.

-12-د. عبد المجيد النجار – الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي ص : 97 مجلة التجديد تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا السنة الأولى العدد الأول يناير 1997 م / رمضان 1417 هـ

-13- رواه الترمذي في كتاب : تفسير القرآن، سورة البقرة وقال حديث حسن صحيح. سنن الترمذي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان 673/4 دار الفكر العربي بيروت 1400هـ/1980 م .

-14 – أنظر د. فاروق أحمد دسوقي – استخلاف الإنسان في الأرض ص : 05 دار الدعوة بالإسكندرية 15-د. عماد الدين خليل – التفسير الإسلامي للتاريخ ص : 199 دار العلم للملايين بيروت ط3-1981.

-16- أنظر : محمد فؤاد عبد الباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص: 441.

-17-د. محمد سعيد رمضان البوطي – منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص : 98 دار الفكر دمشق 1405

18- سيد قطب – في ظلال القرآن 59/1 دار الشروق بيروت ط11 –1402 هـ / 1982 م.

-19- أنظر على سبيل المثال : الجوهري – الصحاح تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار 1354/4 –1356 دار العلم للملايين بيروت ط3-1404 هـ / 1984 م. وابن منظور- لسان العرب 1235/2 دار المعارف مصر د.ت.

-20- الراغب الأصفهاني – معجم مفردات ألفاظ القرآن ص : 156-157.

-21- الزمخشري – الكشاف 1-271 دار الفكر بيروت 1397 هـ/1977 م.
-22- أنظر : د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي – الإنسان : وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم ص : 341 مكتبة وهبة القاهرة 1410 هـ/1990 م.
-23- د. أحمد حسن فرحات – الخلافة في الأرض ص : 21 دار الأرقم الكويت 1406 هـ/1986 م.
-24- أنظر : د. فاروق أحمد دسوقي – استخلاف الإنسان في الأرض ص : 12.
-25- محمد قطب – حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص :58-59 المجموعة الإعلامية جدة السعودية ط3 / 1989.
-26- الراغب الأصفهاني – الذريعة إلى مكارم الشريعة تحقيق ودراسة : د أبو اليزيد العجمي ص : 90-92 دار الوفاء المنصورة مصر ط2 1407هـ/1987 م.
-27- د/ عبد المجيد النجار – عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي ص : 33 مجلة المسلم المعاصر – تصدر عن مؤسسة المسلم المعاصر السنة : 18 العددان : 71-72 رجب – ذو الحجة 1414 هـ فبراير – يوليو 1994م.
-28- الفخر الرازي – التفسير الكبير 12/21 دار إحياء التراث العربي بيروت ط3 د.ت.
-29- القرطبي – الجامع لأحكام القرآن المجلد الخامس 294/10 دار إحياء التراث العربي بيروت 196.
-30- أنظر : السيد قطب – في ظلال القرآن 3226/5.